

صورة عن بيئة المسلمين في عهد الاستعمار في الهند

*الدكتور عبد الكبير محسن

Abstract

In this article ,the effects of British Raj over Hindustan have been taken into considration.

The Prominant differences leading to the changes of social life of the resiidents of Indo PaK IN GENERAL and the Muslims in particuler which brought about tremendus changess in the history and traditions of the masses .Although this topic is debateable yet some of the prominent features have been discussed.

أهم الأحداث في تاريخ مسلمي الهند سيطرة الاستعمار الإنجليزي على بلاد شبه القارة وبذلك تقلب الدهر على المسلمين وأصابتهم نكبة سياسية لم ير التاريخ مثيلاً إلا نادراً ، فقد ظهرت فالية الأفاعى بوفاء الملك أورنگزيب في أوائل القرن الثامن عشر الميلادي الذي كان آخر إمبراطور مغولي قوى وعهده كان أزهى عهود المسلمين في الهند حيث خضعت الهند بقضها وقضيضها لأول مرة للحكومة الإسلامية وهذه كانت قمة نهضة المسلمين التي لم تدم طويلاً وبدأ زوالهم وهذا الملك عُمر طويلاً ولما وافى أجله كان ابن تسعين سنة وخلف من بعده خلف لم يستطيعوا إبقاء هذه العظمة وابتليت الهند بظروف قاسية تُشابه ظروف الأندلس المسلمة أيام انقراضها واقتسمت إلى إمارات استقلت بنفسها وأبت البقاء في الخضوع للحكم المغولي المركزي فنتيجة لذلك سهل على الإنجليز القضاء عليها واحدة تلو الأخرى ، بدؤوا أستاذ اللغة العربية بكلية أصغر مال الحكومية ، راولپندي، باكستانبنجال واحتلوها إثر حرب بلاسي سنة ١٧٥٧ م ثم خضعت لهم مملكة ميسور التي كانت أكبر سيرة أمام سيل الاستعمار الإنجليزي بقيادة السلطان فتح علي خان ثيبو الذي استشهد في آخر معركة ضد الإنجليز سنة ١٧٩٩ م ، خضعت لهم السند سنة ١٨٥٦ م ثم في السنة القادمة سقطت على أيديهم دهلي عاصمة حكومات الأسر المسلمة منذ ثمان مائة سنة ومن هنا لحق المسلمين تقلب جذري انتهى بتراجعهم من مجالات الارتقاء والتقدم وبدأ ابتلاؤهم العظيم الذي فرق جمعهم وأذهب ريحهم وكسر شوكتهم وضائق بهم أرض الهند بما رحبت فاختر عدد كبير منهم المهاجرة إلى أفغانستان ثم منها إلى وسط

*أستاذ اللغة العربية بكلية أصغر مال الحكومية . راولپندي

آسيا (١) كما أن بعضهم لجأ إلى القبائل المسلمة الساكنة في المنطقة الحرة في شمال باكستان الحالية وأخذوا يحرضون القبائل على المقاومة للاحتلال كما فعل الزعيم الكبير الشيخ أحمد والشيخ اسماعيل الدهلوى وبعد شهادتهما قرب بالا كوث سار على نهجهم الشيخ ولايت على فإنه هاجر مع ركب كبير من أهله وأقاربه وتلامذته وتمركز في هذه المنطقة وسعى في مجال الجهاد مدة من الزمن (٢)

وكان ابتلاء مسلمي بنجال أشد وأعظم لمساهمتهم في حركة جهادية قام بها الشيخ أحمد وخلفاؤه وقد ألقى الدكتور وليم هنتر أضواء على تلكم الأحداث في كتابه (our Indian Muslims) ومع هذه البلوى الفاجئة المظلة على بقاع الهند قام كثير من زعماء المسلمين وقدموا جهودا فعالة لإبقاء وجود المسلمين في هذه الديار أثناء هذا الزلزال ومع أخطار كثيرة فإنهم لم يرضوا بالمسكنة والذل بل استمروا في أخذ مناكب القوم وتحذيرهم من مضار وأخطار سببها الاحتلال فلم تخدم شعلة الإقدام والتحرك ولم تتوقف المساعي العلمية والجهود الأدبية بل واجهوا هذا الدور الجديد القاسى بكل مصابرة ومراقبة حتى وفقوا في أهدافهم النبيلة ونجحت جهودهم في إبقاء وجود المسلمين في الهند وهذا عكس ما نال إخوانهم في الأندلس الذين لم ينتهوا لأخطار راقبة لهم حتى آخر لحظة فاضطروا للانسحاب من أرض الأندلس العزيزة ، ففي الأسطر الآتية نعطي إشارات حول أهم الاتجاهات والتيارات التي تعرفت عليها الهند في أيام الاحتلال الإنجليزي انتهز مبشروا النصرارى هذه الفرصة فانتشروا في أكناف الهند وأطرافها لنشر النصرانية وكانت بداية هذه المحاولات في عهد الإمبراطور المغولى جلال الدين محمد أكبر حيث احتل البرتكاليون بعض مناطق الهند الساحلية مثل مالا بارو معبر وجاء عدة قسيسى النصرارى إلى بلاط هذا الملك لمناظرة علماء الإسلام (٣) ثم كثر ورودهم من سنة ١٨١٣ م بعد أن قبل البارليمان البريطانى اقتراحا قدمه أحد أعضائه (والير فورس) وهم بذلك سمحوا من يريد الذهاب إلى الهند من مبلغى النصرانية لنشر دينهم (٤) فلبى دعوتهم كثير من جماعات التبشير وانتشرت في مختلف جوانب الهند وقسموها فيما بينهم لمهمة التبشير وتبليغ النصرانية واتخذوا عدة وسائل لنيل هدفهم مثل مساعدة مالية لمن يقبل النصرانية من سكان البلاد وبناء المدارس ومراكز التربية والمستشفيات كما أنهم أصدروا مجلات تنشر عقائدهم وكانت هناك فرقان منهم : فرقة لتبليغ الهناذكة وفرقة لتبليغ المسلمين ، وقد شوها التاريخ الإسلامى في الهند

واتهموا المملوك المسلمين بالظلم والعداوة للهنادكة ورموهم بالتعصب ضدهم وإضاعة الثروة الهندية وصرفها في بناء القصور والحدائق واتصفوهم بضيق الفكر (٥) وكان القرآن الكريم هدفهم الأول حيث أرادوا تشويهه وأوردوا الشبهات ، ألف حاكم الأقاليم المتحدة وليم مور كتابا باسم (Life Of Muhmmad) الذى أحدث ضجة في ساحة الهند فقام عديد من علماء الإسلام للرد على مطاعن بثها الرجل في كتابه ، منهم سر سيد أحمد خان الذى ألف كتابا بعنوان: خطبات أحمدية وطالب ابنه سيد محمود بترجمته إلى الإنجليزية وطبعه وكان ذلك ردا قويا على كتاب وليم مور (٦) ومنهم الشيخ جراغ على (م ١٨٩٥م) وألف كتابا باسم (أعظم الكلام في ارتقاء الإسلام) ورد به على القسيس الذى ادعى أن الإسلام مانع عن التقدم والرقى (٧) ومن هؤلاء الشيخ محمد على مونگیری فإنه أصدر مجلة من كانفور بعنوان: منشور محمدى (٨) ومنهم مولانا أبو الكلام آزاد الذى خاض عدة معارك كلامية ضدهم والشيخ ثناء الله امرتسرى صاحب كتاب (جوابات نصارى) والشيخ شبلى نعمانى والشيخ رحمت على والشيخ محمد قاسم نانوتوى وآل حسن ودكتور وزير على وآخرون ، وهم بفضل جهودهم ضيقوا على المبشرين أرض الهند ولم يمكنوهم من نشر مذهبهم بسهولة وهكذا وقوا المسلمين من الوقوع في شبكة الاستعمار ، وقد رد دكتور لانتر على مطاعن دكتور وليم مور وذلك بعدة محاضرات ألقاها بهذا الصدد (٩)

وهذا من أهم الاتجاهات والتيارات التى عرفت الهند بسبب الاستعمار الأجنبى ، ومنها أن أهل بلاد الهند تعرفوا على أوروبا باتجاهاتها واكتشافاتها وصناعاتها التى جرّت لهم التفوق على أقوام العالم وهم بذلك استطاعوا إقلاع حكومة شبه القارة المسلمة التى كانت تعد من أقوى حكومات العالم والنسب لم تسقط أمام طوفان التاتار مع أنه غشى أكثر البلاد الإسلامية كقطع الليل المظلم ، فمن هنا تطورت الأفكار وتغير مجرى الأحداث المعاصرة فوجد من المسلمين وغيرهم من سكان البلاد إقبال هائل على مظاهر جديدة من ثقافة أقوام أوربية وحضارتهم وهم بهذا بدأوا قبول حقيقة جديدة والتعرف على المخترعات الحديثة والتخلص من دائرة الجمود التى كان المسلمون بصفة خاصة منحصرين فيها فانقسم القوم إلى فرقتين ووجدت بينهما منافسة ، فرقة تؤيد التجديد وتريد من أبناء ملتهم الاعتزال عن القيود القديمة وهى لذا تختار الوسائل العصرية وتغير النظام التقليدى لتربية الأجيال الناشئة بإنشاء مدارس تأخذ حظها في مقرراتها من علوم وفنون عصرية أيضا حتى ينالوا التقرب

من القوة الحاكمة ما دامت أنها أصبحت حقيقة قائمة بذاتها ومن أشهر زعماء هذه الفرقة التجديدية سر سيد أحمد خان وقد بذل جهوداً جبارة في حث المسلمين على اختيار التجديد والتقرب إلى قوة حاكمة وسعى لذلك بمؤلفاته ومقالاته التي حاول فيها التطبيق بين الإسلام والاكتشافات العلمية الجديدة وأصدر مجلته باسم تهذيب الأخلاق لتحقيق هذا الغرض وله آراء تفسيرية تجدد فيها والتي جعلته عرضةً للنقد الفاحش من العلماء المخالفين لفكرته ونهجه حتى رموه بالكفر مع أن معظم هذه الآراء لقيت قبولا عند بعض العلماء من داخل الهند وخارجها أمثال العلامة رشيد رضا صاحب المنار الذي وافقه في رأيه في مسألة النسخ وإنكار وجود خارجي للملائكة (١٠) وللسيد أحمد خان فضل كبير في إزالة تهمة البغي والعدوان التي قُذِفَ بها المسلمون أثناء ثورة ١٨٥٧م وهم بذلك تعرضوا لمشاكل ومحن جعلت وجودهم في خطر كما أنه أنشأ كلية لتدريس العلوم العصرية وتعليم اللغة الإنجليزية التي كانت في تلك الأيام أكبر وسيلة للاستفادة من جديد، ومن الذين رأوا رأيه بصدد التقليد والتجديد الشيخ عبيد الله السندی وقد هاجر من الهند وساح في كثير من الدول وشاهد الأقوام الأوروبية فحاول بعد العودة إلى الهند الجمع بين معالم العصر الجديد وتقاليده العصر القديم ودعا إلى الأخذ والاستفادة من علوم العصر دون ترك الثقافة القديمة وخاصة في مجال الاقتصاد الذي سبب الارتقاء البارز لدول أوروبا

أما مخالفو هذه الحركة التجديدية فكثيرون وهم أهل الدين ورجال الدعوة الإسلامية على النمط القديم وهم رفضوا إلا التمسك بتقاليد وصلت إليهم من أسلافهم فلم يجددوا مقررات مدارسهم فظلت تعيش مع مواد فقدت أهميتها في العصر الحديث ورفض هؤلاء كل جديد، طيبه وخبيثه دون التمييز بينهما وقد أفتى هؤلاء بتحريم تعلم اللغة الإنجليزية باعتبارها لغة الاستعمار وشدوا في ذلك خوفاً من أن تتسرب أضرار ثقافة الإنجليز إلى من يتعلمها من المسلمين ونتيجةً لذا توسع الخليج بين الفرقتين وانقسم القوم في طائفتين أخذ كل منهما بطرف الحبل وما زال هذا الانقسام يعلن وجوده مع أن الاستعمار انتهى دوره منذ زمان.

وكان ثمة رأي ثالث يدعو إلى التوازن والاعتدال في مسألة التجديد والتقليد وصاحبه شاعر ومفكر القوم العلامة محمد إقبال الذي طالب اجتناب الوقوع في جدليات ومناقشات غير مجدية وغير ضرورية والتي ليست لها صلة بالمجتمع وقد التزم الشاعر الفيلسوف بطريق الاعتدال فلم يخالف

التقليد بسبب أنه قديم ولم يكب على التجديد إكباباً على غير حذر بل دعا إلى الأخذ من كليهما ما يكون نافعا للحياة الفردية والاجتماعية وقد قام بمطالعة الجهات والأفكار والتيارات المختلفة وقارن بينها ثم شق طريقاً حسبه في مصالح الأمة الإسلامية وسلك سبيلاً يمتاز بالاعتدال وعدم التفريط والإفراط ومن آثار الاحتلال أيضاً حركات ظهرت لتشويه شخصية المسلمين وهوية دينهم الذي يدينونه فمنها حركة (بهكتي أو ما سُمي ب : شدهي) قام بها الهندوس بهدف إرجاع إخوانهم الهنادكة الذين اعتنقوا الإسلام إلى دينهم الأصلي أي الديانة الهندوسية وما كانت هذه أول محاولة لهم بل إنهم سعوا لتحقيق هذا الهدف كلما وجدوا الفرصة سانحة وها هم وافوا أيام الاحتلال الإنجليزي فرصة أخرى حسبوها ذهبية فأرادوا أن ينتهزوها وقد كان المسلمون يعانون من مشاكل قاسية أحاطت بهم من كل جانب فأخذوا ببذل جهود كلامية وتحريرية في مجال التشكيك وإيراد الشبهات في القرآن والإسلام وصاحبه عليه الصلاة والسلام فألف أحدهم كتاب : ستيارته بركاش و وجّه اعتراضات كثيرة حسب زعمه إلى القرآن الكريم فبرز علماء الإسلام لمقاومة هذه الحركة بنفس الخطوة فألفوا وناظروا وخاصوا معارك جدلية عنيفة ضدهم كأمثال الشيخ ثناء الله امرتسرى الذي ألف كتاب : حق بركاش رداً على الكتاب المذكور ولما صدر من أحد خبثائهم كتاب آخر في بث المطاعن حول شخصية الرسول باسم : رنكيلا رسول ، ألف الشيخ كتاباً باسم : مقدس رسول كما أنه ألف كتاباً آخر بهذا الصدد وهو كتاب الرحمن في جواب : الله ويد هي يا قرآن؟ (١١)

ولما اجترأ بعض لثام الهنادكة على شتم النبي ﷺ بلسانه قام بضعة من شبان المسلمين وجادوا بأنفسهم وصلّوهم نار جهنم فنظروا إلى تلكم التضحيات خمدت نار حقدهم وبغضهم ، الصراع بين أتباع الهندوسية وأتباع الإسلام بقي موجوداً وقد اشتد الآن في بعض مناطق دولة الهند والحركة الأخرى التي هدفت إلى تشتيت كلمة المسلمين وكان الاستعمار وراءها هي حركة القاديانية وهي ادعاء النبوة قام بها مرزا غلام أحمد القادياني وتَسَبَّب لإضلال بعض الحداث من المسلمين وقد وجد دعماً من الاستعمار لأنهم خافوا من استمرار حركة جهادية في مقاومتهم منذ بداية عهدهم في الهند فاختاروا هذا الرجل ليُفتى بتحريم الجهاد بنوته الجديدة الكاذبة وقد فعل حيث أعلن بأن الهند دار الإسلام كما أنه أراد تضعيف عقيدة الإسلام في الأفغان الذين اشتهروا بالترسيخ والتصلب في عقيدتهم الإسلامية فأرسل دعاته إلى أفغانستان لتفريق جمع المسلمين هناك ولكن الله أنعم على

حكومتها فانتبهت لأخطارهم ومضارهم فقضت عليهم بقتلهم واحدا تلو الآخر دون أن يتمكنوا في أرضهم ، أما في الهند فلعلماء المسلمين فضل كل الفضل في الرد على ترهات وادعاءات هؤلاء القوم فبأنهم تعاقبهم في كل واد وقعدوا لهم كل مرصد واجتهدوا في ذلك حق الاجتهاد حتى لم يجد القوم منجدة وأخيرا لقي سعيهم نجاحا بالغا حيث اتفق البارليمان الباكستاني على القرار المقدم إليه والذي ينص رسميا على كونهم من أقليات باكستان الكافرة نتيجة حركة عرفت ب : تحريك ختم نبوت سنة ١٩٤٢ م وبذلك نجا الشعب الباكستاني وغيره من أخطارهم لأنهم كانوا من قبل يتسترون بالتقية ويخادعون عامة المسلمين باسم الإسلام.

هذه بعض أهم ملامح وتيارات اتسمت بها بيئة شبه القارة التي عاشها المسلمون في عهد الاستعمار الإنجليزي فهي بيئة ذات أطراف وجوانب ما أكثر ما حُلَّ بها من تغيرات وما أبدع ما طرأ عليها من تطورات وتاريخها السياسي والعلمي مملوء بالتطورات كل آن ومصاب بالتبدل كل زمن فإذا كانت هذه تختلف عن بيئة عاشها المسلمون من أبناء اللغة العربية لأنهم حافظوا على كياناتهم وثقافتهم وتقاليدهم التي ورثوها من قدمائهم أما سكان الهند فصادفوا عدة حضارات وثقافات فهم إذن ترعرعوا في أحضان بلاد كانت مهد مختلف الملل وشتى النحل والتي تعرفت على لغات كثيرة واستقبلت اتجاهات متنوعة فكل عهد فيها كان مختلفا عما سبقه وكل زمان قادم كان يزيد في ثروتها ويطور تراثها فبأنها أرض رحبة آوت كل من لجأ إليها من أقوام وطوائف وخفضت جناح ذلٍ ورحمة لكل من حُلَّ بها من ملّة أو ثقافة أو لغة ففيها صلاحية الإذابة والتدميج وتاريخها لمختلف عصورها يصدق ما نقول وشاهد له .

الهوامش

- (١) خالد شبير احمد : تاريخ محاسبه قاديانيت ، ص : ٢٠٤ ، وكثير منهم هاجر إلى مكة والمدينة
- (٢) محمد ميان دهلوی : علمائے ہند کا شاندار ماضی ، ص : ١١/٣
- (٣) شيخ محمد اکرام : رود کوثر، ص : ١٣٤
- (٤) سيد محمد الحسن : سيرت مولانا محمد علي مونگیری، ص : ٤
- (٥) أيضاً، ص : ٢٣
- (٦) شيخ محمد اکرام : موج کوثر، ص : ١٦٢
- (٧) أيضاً، ص : ١٦٦
- (٨) سيد محمد الحسن، المرجع السابق، ص : ٢٨
- (٩) شيخ محمد اکرام : موج کوثر، ص : ١٨٥
- (١٠) أيضاً، ص : ١٦٢
- (١١) خالد شبير احمد، المرجع السابق، ص : ٢٦٩، و ٢٤٠

المراجع

- (١) تاريخ محاسبه قاديانيت ، خالد شبير احمد ، كاروان ادب ملتان ١٩٨٤
- (٢) رود کوثر، شيخ محمد اکرام ، اداره ثقافت اسلاميه لاهور ١٩٤٥
- (٣) سيرت مولانا محمد علي مونگیری، سيد محمد الحسن ، لاهور
- (٤) علمائے ہند کا شاندار ماضی ، محمد ميان دهلوی ، لاهور
- (٥) موج کوثر، شيخ محمد اکرام ، طبع نمبر : ١٢ ، ١٩٨٤